يتضح من هـذا أن الكتابة فى عهد النبوة بكل ما اشتملت عليه من ألوان المعاهدات والمواثيق وبنود الصلح والمكتب والرسائل في مختلف المناسبات لم تخرج عن الإفهام لتقصد الفن والإطراب ، وإذا كان هـذا شأن الكتابة وهي تعاصر أسلوب القرآن البيانى المعجز ، وبناء الدولة الجديدة وقيام الإسلام فى المدينة وشدة الحاجة إلى الكتابة ، فكيف يعقل أن يكون لها شأن أعظم قبل ذلك فى الجاهلية ؟ ذلك أن العرب لم يستخدموا الـكتابة إلا فى بعض الأغراض السياسـية والتجارية « ومن المؤكد » — كما يقول الدكتور شوقي ضيف : —

« أن الكتابة لم تكن حينئذ تؤدى بجانب أغراضها السياسية والتجارية أغراضاً أدبية أو فنية من تجويد وتحبير ، إذ لم تكن أكثر من كتابة ساذجة أدت أغراضاً خاصة فى عصرها ، وانتهت بانتهاء هذا الغرض»[1] .

أما الشأن فى مجال النثر الفنى فقد كان للخطابة وحـدها ، وسر ذلك أن العرب أهل بديهة وارتجال كما قال الجاحظ ، هـذه البديهة والارتجال مكنت العرب من أن يتقنوا الفن القولي قبل أن يتقنوا الفن الكتابى إلى جانب العوائق المادية التى تتمثل في صعوبة وسائل الكتابة وأدواتها . وأعظم دليل على ذلك أن البلاغة كانت تقترن عندهم أكثر ما تقترن بالخطابة ، واقتران الخطابة بالبلاغة معروف عند الجاحظ دون حاجة إلى دليل ، فكتاب البيان والتبيين قوامه الخطابة والخطباء ووقفة الجاحظ إزاء ما كان من شأنها فى الجاهلية تدل على تفوق العرب فى فن القول دون أن يتجاوز ذلك إلى الكتابة . بل إن أكثر كلمات اللغة التى يستدل بها الجاحظ على معرفتهم لعيوب البلاغة تدور كلها حول

= قراءة أصح كما فى تحقيق محمد توفيق حسين لكتاب المقابسات ص١٢١–١٢٢ (طبعة جامعة بغداد / ١٩٧٠) .

(١) الفن ومذاهبه فى النثر العربى – ص١٩ (القاهرة الطبعة الثالثة – ١٩٦٠).